بقاء الأصلح

يتفاصح بعض المثقفين حين يرون الصهيونيين متغلبين والعرب متخاذلين — يتفاصحون بكلمة دارون المشهورة في نظريته « بقاء الأصلح » كما يزعمون . يتبجحون بها ولا يفهمونها . يعنون أن اليهود أكفأ من العرب في تعمير فلسطين . فيقولون انظر الى مستعمراتهم فيها ، ثم الى مواطن العرب تر الفرق . لا نناقش هؤلاء في المسألة من حيث الوجهة التطورية البحتة لأنهم لا يفهمون ما يقرأون . وإنما نسألهم « بقاء الأصلح » لمن ؟ — الأصلح لليهود ؟ نعم . الأصلح للعرب ؟ لا . فإذاً الأصلح لمن على العموم ؟ لأرض فلسطين ؟ ... الأرض لا يهمها هذا ولا ذاك . ولا هي تشعر فيما هي فيه من عمران أو قفر . ولكن العرب يكرهون أن يعمر اليهود مساحة من أرضهم ، ثم يملكونها ، وأخيراً يطردونهم منها . فلا يوافقون على هذه الأضاحية بل يشجبونها ويحاربون لأجلها . فالمسألة ليست مسألة تعمير أو تدمير ، وإنما هي مسألة طغيان أقاقين طغوا على سكان متوطنين بقوة الكلترا أولاً وآخراً ، وقوة أميركا أخيراً . فإذاً المسألة هي بقاء الأقوى لا الأصلح أولاً وآخراً .

العرب واليهود هم في فلسطين منذ القديم الى اليوم . أفما شعر اليهود أنهم أصلح من العرب إلا اليوم . فما الذي منعهم من استعمار فلسطين كل هذه المدة من بعد أن شتتهم تيطس ؟ وإذا كانوا أصلح من سواهم للتعمير فلماذا مكنوا دولة بابل منهم ؟ ، ثم دولة مصر ، ثم دولة الرومان ، ثم دولة الأغريق ، ثم دولة العرب ، ثم دولة الترك ؟ . لماذا لم يحتفظوا بالبلاد إن كانوا أصلح من سواهم لها ؟ ، ما الذي قذف بهم من أوروبا الى الشرق والبلاد الأخرى ؟ أصلحيتهم أم ضعفهم وتخاذلهم ؟ وهل كانوا ، ولا يزالون ، يستعمرون فلسطين الآن بأصلحيتهم أم بقوة غيرهم ، وبالمال الذي استمدوه من أوروبا وأميركا ، ومن نصارى أيضاً (لا تنسوا هذا)

والذين يلوكون كلمة بقاء الأصلح لاشك أنهم لا يفقهون ما يقولون ، ولا يذوقون طعم ما يمضغون ويزدردون ثم يتقيأون . تعموا كلمتين جاءتا على طيطابهم أي على هواهم فصاروا يتبجحون بالمادة بهما ، كأنهما من مستنبطات فلسفتهم وهم لا يفهمون ماذا يقولون .

« وبقاء الأنسب » ، أي المناسب للبيئة كما قاله دارون ومن جاروه في نظرية التطور ، ليس الأصلح لشيء من الأشياء ، بل لمن ، أو لما يمكنه أن يتفق مع البيئة ويعيش فيها . وأما من لا يستطيع أن يعيش فيها فيهلك فيها إن لم يهجرها . وخير تعبير لهذه الحالة هو ما قاله دارون ، أي « بقاء الأنسب » (أي الأكثر مناسبة للبيئة) وهي تقابل بالإنكليزية The Fittest . فكون الطير يعيش في الهواء والبر ليس أصلح من السمك الذي يعيش في الماء .

وقد عاش ويعيش في البحر حيتان أقوى وأضخم من الديناصور البري . فلم يكن الديناصور أصلح وأسلم من حوت يونان . وإنما كان البر أصلح منه . والحوت صلح للبحر من الديناصور . فلو حاول هذا أن يزاحم ذاك في البحر لقضى نحبه . ولو ذاك هذا في البر لاختنق في أوكسجين الهواء . فالمسألة ليست اصلحية وإنما هي توافق الحي وبيئته .

ولما غزا البربر الشماليون في أوروبا الدولة الرومانية في آخر أيامها لم يكونوا إلا همجاً . لم يكونوا أصلح من الرومان، بل كانوا طغاة وبطشهم غلبوا . وما أظننا أن اليهود قد لا يستطيعون أن يعيشوا في هذه البيئة الجديدة إن كان الجو العربي المحيط بهم يختنقهم اقتصادياً

بين يدي كتاب لعالم اثروبولوجي كبير هو الدكتور السير ارثر كيث بعنوان « نظرية جديدة في التطور البشري » . وفيه فصل عن عاملي التطور الخطيرين : التكافل والتنازع . سأقدم الفرصة المناسبة لأنقله الى المتلطف لكي يفهم هؤلاء المتفاصحون معنى « بقاء الأصلح في قولهم » .

في كتابي « أصل الأنواع » و « تسلسل الإنسان » كان داروين يبحث في التنازع الحيواني . وقلما تصدى ، أو لم يتعد ، للتنازع البشري . فقام بعض المغالين في نظريته يطبقون هذه النظرية على المجتمع الإنساني . ومن جملتهم رحمة الله عليه ، الدكتور شبلي الشميل ، حتى أنه لما دعا قيصر روسيا نقولا الثاني دول أوروبا لنزع السلاح وتسوية المشاكل الدولية بالتحكيم — ومن ثمت بنى كارنجي الثري الشهير محكمة العدل في لاهاي لهذا الغرض — لما دعا القيصر دعوته هذه قام الدكتور شميل يصرخ ان هذا القيصر غبي لا يفهم أن الحرب لابد منها لأنها صورة من صور تنازع البقاء وبقاء الأنسب . وجعل يبرهن على ذلك بنظرية داروين .

وكنت حينئذٍ على صغر سني وحداثتي مناقضاً له . فناقشته في الموضوع مناقشة كادت تقضي على شجبه للسلام . وقلت ما لخلاصته : « ان نظرية داروين تنطبق على الحيوانات أكثر مما تنطبق على البشر ، لأن عند البشر عملية ليست عند الحيوانات . عند الحيوانات عملية « تنازع البقاء » ولكن يقابلها عند البشر عملية « تكافل الأنام وتعاونهم » ، فهذه تقاوم تلك . فإذا كنا في هذا الزمان لا نرى أن عملية التعاون والتكافل لا توازن عملية التنازع في المستقبل ، ولو البعيد ، سنرى التعاون يتغلب على التنازع . ولا نحن نرى في جمعية الأمم ، أو هيئة الأمم ، ومجلس الأمن روح التكافل أغلب على روح التنازع . فان كانت اليوم هذه الحركة في تجربتها الأولى هزأة وسخرية وسخافة، ففي المستقبل ولو البعيد حين يتغلب الرشد على الغي ستكون نعمة وبركة . هل فهمتم يا هؤلاء معنى بقاء الأصلح ؟